الفصل الثامن
السيد محمد باقر الداماد
(٩٦٩-١٠٤١هـ/١٥٦١-١٦٣١م)

زكي الميلاد
باحث ومفكر إسلامي، رئيس تحرير مجلة الكلمة، السعودية
almilad@almilad.org

المقدمة:

بذل العلماء المسلمون كثيراً من الجهد ، لكي يصلوا إلى غايتهم من العلوم، منطلقين من التوجيهات القرآنية والنبوية، ومستفيدين من التراث العلمي الضخم الذي تركه السلف للخلف.

ويعدّ السيد محمد باقر الداماد واحداً من علماء الفلسفة الإسلامية، الذين وطّنوا لأنفسهم موطأ قدم راسخ فيها، وضرب فيها باعاً ليس باليسير، ومن هنا كانت فكرة هذا البحث الرامي إلى الكشف عن محاور مهمة في حياة الداماد العلمية، والكشف عن مواقفة الفلسفية التي تميز بها عن غيره من علماء الفلسفة الإسلامية.

يتناول هذا البحث سيرة حياة الداماد ، وقد عرض لها على نحو مقتضب، لقلة الأخبار التي نقلتها المصادر التي ترجمت له، ويتناول أهم المفاصل الفكرية التي أعلت من شأن الداماد وجعلت منه جديراً بلقب المعلم الثالث.

وفي مقاربة منهجية يتناول البحث نموذجاً من التلاميذ المبدعين للداماد، وهو الملا صدرا، للكشف عن أثر المعلم الداماد في تلاميذه، مما يجمل لنا أثره في معاصريه ومن جاء بعدهم واطّلع على مصنفاته.

أولاً: ترجمته ومكانته

من الأسماء التي يؤرخ لها بعناية واهتمام في تاريخ تطور الفكر الإسلامي الفلسفي في إيران، ما بين النصف الثاني من القرن العاشر، والنصف الأول من القرن الحادي عشر الهجريين، السيد محمد باقر بن محمد الحسيني الأسترابادي، المعروف بالداماد. والداماد بالفارسية تعني الصهر، ولُقّب بذلك حسبما جاء في موسوعة طبقات الفقهاء؛ "لأن أباه كان صهر علي بن عبد العالي الكركي المعروف بالمحقق الثاني، ولقب هو بذلك بعد أبيه".[1]

ومعظم كتب السير والتراجم والأعلام لا تذكر تاريخ ولادته، الذي لا يعرف على وجه الدقة في نظر الباحث الإيراني، المتخصص بالدراسات الفلسفية، غلام حسين ديناني، ونقل عن السيد الطباطبائي مصحح كتاب (نخبة المقال في أسماء الرجال) أنه ظفر بتاريخ ميلاده سنة ٩٦٩هـ/ ١٥٦١م،[2] وأشارت موسوعة طبقات الفقهاء التي أشرف عليها الشيخ جعفر السبحاني إلى سنة ٩٧٠هـ، وتوفي بالعراق سنة ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م، التي وصل إليها مع الملك صفي الصفوي لزيارة مراقد أئمة أهل البيت، ونقل جثمانه إلى مدينة النجف الأشرف ودفن فيها.

وهناك ثلاثة عوامل أساسية ساهمت في استذكار السيد الداماد، وفي تعزيز مكانته الدينية والفلسفية في تاريخ حركة الفكر الإسلامي الفلسفي في إيران؛ وهذه العوامل الثلاثة هي:

١- الدور المهم والفاعل الذي كان له في نهضة مدرسة أصفهان الفلسفية في العصر الصفوي وتقدمها، وهي المدرسة التي ورثت مدرسة شيراز الفلسفية، وتفوقت عليها. فبعد أن كانت الأنظار تتجه نحو المحقق والفيلسوف الإيراني جلال الدين الدواني (٨٣٠-٩٠٨هـ/١٥٠٢م) في شيراز، سطع نجم السيد الداماد في أصفهان، بعد ما يقارب نصف قرن على وفاة المحقق الدواني، فالتفتت الأنظار إليه.

وقد قامت مدرسة أصفهان الفلسفية بأدوار مهمة

وحيوية في تاريخ تطور الحياة الفكرية والفلسفية والدينية في إيران، خصوصاً وأنها كانت تمثل آنذاك عاصمة البلاد ومركزها، وتقع في الجزء الأوسط الغربي من إيران، وعرفت بكثرة مساجدها. ويرىٰ غلام حسين ديناني أن مدرسة أصفهان الفلسفية بدأت أعمالها بأفكار السيد الداماد، ولولاه لما تبلورت هذه المدرسة علىٰ النحو الذي وصلت إليه.[٣]

ويذكر المستشرق الياباني توشيهكو إيزوتسو المتخصص في الفلسفة الإسلامية، أن المؤرخين في الغرب بدأوا حديثاً يتحدثون عن مرحلة النهضة الصفوية في الثقافة الإسلامية، وأخذ المتخصصون منهم، وبخاصة في حقل الفلسفة، ينهضون بمناقشة جدية نشوء مدرسة أصفهان وتطورها في الفلسفة الإسلامية. ويعد توشيهيكو الداماد واحداً من أعظم الشخصيات التي برزت في تاريخ الفلسفة الإسلامية في العصر الصفوي، فلا يمكن للمرء في نظره أن يفهم بدقة المعنىٰ الحقيقي للرسالة الفلسفية لمدرسة أصفهان، من دون أن يكون قادراً علىٰ تحديد المكانة الخاصة للمير داماد في تاريخ تطور هذه المدرسة.[٤]

٢- طبيعة العلاقة التي كانت بين السيد الداماد والدولة الصفوية وحكّامها، فقد مثّل ظهورها في بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، حدثاً كبيراً ومؤثراً، ليس فقط في تاريخ تطور إيران السياسي والثقافي الذي غيَّر وجهتها، وإنما في تاريخ تطور العالم الإسلامي برمته.

ذكر الذين ترجموا لسيرة السيد الداماد وحياته، أنه نال مكانة كبيرة وجاهاً عريضاً عند ملوك إيران الصفويين،[٥] وكانت له منـزلة خاصة في بلاطهم. وقد استفاد السيد الداماد من هذه العلاقة في تدعيم مكانته الفكرية والدينية، وفي حماية أفكاره وآرائه ونشرها ، وهذا ما أشار إليه الدكتور ديناني الذي تحدث بصيغة (ربما) وحسب قوله: "وربما لولا الدعم الصفوي لما كان بإمكان السيد الداماد أن يمد مائدته الفلسفية بهذه السهولة، أو يسعىٰ لنشر الحكمة إلىٰ هذا الحد.. وقد كتب السيد الداماد أهم كتبه ويدعىٰ -الجذوات- للشاه عباس الصفوي وبأمر منه".[٦]

٣- علاقة السيد الداماد بالملا صدرا، الذي كان تلميذاً مقرباً ومعروفاً عنده، وهو الفيلسوف الذي اكتسب شهرة متعاظمة عند الإيرانيين، وما زالت متعاظمة إلىٰ اليوم، علىٰ نحو يلفت الانتباه بشدة إلىٰ هذا الفيلسوف، الذي يكاد لا ينازعه أحد. وهذا التعاظم المدهش لمنـزلة الملا صدر الشيرازي، ظل يلفت النظر باستمرار إلىٰ أستاذه السيد الداماد.وفي هذا النطاق يرىٰ المستشرق الياباني توشيهيكو أن مكانة المير داماد تعاظمت علىٰ نحو كبير عندما برع تلميذه الملا صدرا (١٥٧١-١٦٤٠م) في الفلسفة الإسلامية بعبقرية فذة.[٧]

ثانياً: أساتذته وتلاميذه ومؤلفاته

أكثر ما اعتنت به كتب السير والتراجم والأعلام في سيرة السيد الداماد وحياته ، الحديث عن أساتذته وتلامذته ومؤلفاته، وهذا ما سوف نعتني به كذلك، بوصفه القدر المهم الذي يتوفر عن سيرته.

للسيد الداماد عدد من الأساتذة المعروفين، الذين ورد ذكرهم في ترجمات حياته، وسوف نرتبهم بحسب تواريخ وفياتهم، وهم:

١ . أساتذته:

أ- السيد علي بن الحسين العاملي (توفى ٩٨٠هـ/١٥٧٢م)

من علماء جبل عامل في لبنان، وتلميذ الشيخ زين الدين الجبعي العاملي المعروف عند علماء الإمامية بالشهيد الثاني، ومن أساتذة المحقق البارع المولىٰ أحمد الأردبيلي، ومن مؤلفاته المعروفة كتاب (شرح الشرائع)، وكتاب (مجمع البيان في شرح إرشاد الأذهان).

ب- الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملي (٩١٨-٩٨٤هـ/ ١٥١٢- ١٥٧٦م)

من علماء جبل عامل في لبنان، هاجر إلىٰ إيران في عهد الدولة الصفوية، وحل مكان المحقق الكركي بعد وفاته في منصب شيخ الإسلام، وكان مقرباً من حكام الدولة الصفوية، وفي أواخر حياته اعتزل منصبه في الدولة الصفوية، وذهب إلىٰ الحج ولم يرجع إلىٰ إيران، واختار الإقامة في البحرين وتوفي فيها، وهو والد الشيخ البهائي الذي نال شهرة واسعة بين علماء الإمامية.

ت- الشيخ عبد العالي بن علي الكركي العاملي (٩٢٦-٩٩٣هـ/ ١٥١٩- ١٥٨٥م)

خال السيد الداماد من جهة النسب، وابن الشيخ علي الكركي المعروف بالمحقق الثاني. توفي في مدينة أصفهان الإيرانية ودفن فيها. وكان الشيخ الكركي الأب يعد من أبرز علماء الدين الذين تعاونوا مع الدولة الصفوية، ونال مكانة رفيعة في عهد الشاه طهماسب ، الذي خلف أباه الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية بعد وفاته.

ث- حسين الصاعد بن شمس الدين الطوسي

ذكره علي الموسوي البهبهاني في كتابه: (مير داماد حكيم أستراباد)، نقلاً عن الدكتور غلام حسين ديناني في كتابه :(حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي).

ج- الشيخ عبد العلي بن محمود الجابلقي

ورد ذكره في: (موسوعة طبقات الفقهاء) التي أشرف على إصدارها الشيخ جعفر السبحاني.

وقد لاحظ ديناني أن أساتذة السيد الداماد، ليس من بينهم وجه فلسفي معروف، وهو المنحى الذي برز فيه السيد الداماد وتميز به، وبالتالي فليس هناك تأثير من أساتذته عليه في هذا الشأن، من هنا كان لا بد -في نظر ديناني- من التحدث عن شخصية الداماد الفلسفية وتفوقه في العلوم العقلية، بعيداً عن علاقته بأساتذته.[٨]

٢ . تلاميذه:

نقلت كتب السير والتراجم والأعلام عدداً من التلاميذ المعروفين للسيد الداماد، وهم حسب ترتيب تواريخ وفياتهم:

أ- السيد حسين بن حيدر الحسيني الكركي (توفي ١٠٤١هـ)

عرف عنه تنقله في طلب العلم، ودرس عند كثير من العلماء في مدن مختلفة هاجر إليها لطلب العلم، من هذه المدن أصفهان وقُم في وإيران، والنجف وكربلاء في العراق، ومكة والمدينة في الحجاز، وهراة في أفغانستان. وعن حضوره لدرس السيد الداماد، ورد عنه أنه "اختلف إلى حلقة درس المحقق السيد محمد باقر الداماد سنين طويلة، وأجاز له أن ينقل عنه أقواله في الأحكام، وفتواه في الحلال والحرام، وأن يروي عنه مصنفاته، ومصنفات المحقق الكركي وغير ذلك".[٩] توفي في أصفهان ودفن فيها.

ب- الشيخ محمد بن إبراهيم الشيرازي (٩٧٩-١٠٥٠هـ/ ١٥١٧- ١٦٤٠م)

الفيلسوف الإيراني المعروف بالملا صدرا، الذي اكتسب أعظم شهرة في تاريخ الفلسفة في إيران منذ القرن الحادي عشر الهجري، السابع عشر الميلادي إلى اليوم. ويرى المستشرق الياباني توشيهيكو أن الداماد كان المعلم الموقر للملا صدرا.[١٠]توفي في مدينة البصرة العراقية، وهو في طريقه إلى الحج سنة ١٠٥٠هـ.

ت- الشيخ عبد الرزاق اللاهيجي (توفي ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م)

من كبار الفلاسفة الإيرانيين المعروفين، صهر الملا صدرا الشيرازي وتلميذه كذلك، وهو الذي أطلق عليه لقب الفياض. له كثير من المؤلفات في الفلسفة والكلام والمنطق، منها كتاب : (مشارق الإلهام في شرح تجريد الكلام)، ويعرفه أهل الفلسفة بكتاب :(الشوارق).

ث- الشيخ خليل الغازي القزويني (١٠٠١-١٠٨٩هـ/ ١٥٩٢-١٦٧٨م)

جاء في ترجمته في (موسوعة طبقات الفقهاء)، أنه ظهر تفوقه في وقت مبكر، وتوجه إلى مكة المكرمة، وجاور برهة من الزمان، مقبلاً على الجمع والتصنيف، ثم عاد إلى بلدته قزوين الإيرانية فسكنها وشرع في التصنيف والتأليف ونشر العلوم، من مؤلفاته (الصافي) في شرح الكافي، للكليني، ألّفه بالفارسية في مدة عشرين سنة.[١١]

ج- الشيخ محمد محسن الكاشاني (١٠٠٧- ١٠٩١هـ /١٥٩٨-١٦٨٠م)

ويعرف بالفيض الكاشاني، ولد في مدينة كاشان الإيرانية، درس في أصفهان، ولازم الملا صدرا الشيرازي في مدينة قُم ثماني سنوات، وتصاهر معه. له مؤلفات كثيرة في مختلف مجالات المعرفة الإسلامية، منها كتاب (مفاتيح الشرائع) في الفقه ويقع في ثلاثة أجزاء، وكتاب (أصول المعارف)، وله كتاب يتواصل فيه مع كتاب الإحياء للغزالي، بعنوان (المحجة البيضاء في إحياء الإحياء).

ح- السيد محمد تقي الحسيني الأسترابادي

لم تظفر كتب السير والتراجم بتاريخ وفاته، وجاء عنه في (موسوعة طبقات الفقهاء)، أنه كان فقيهاً عارفاً بكثير من الفنون، مثل أصول الفقه والكلام والرياضيات والنحو والمعاني والبيان، صنف سنة ١٠١٥هـ/١٦٠٦م كتاب (إيقاظ النائمين في تصحيف المصحفين)، بإشارة من أستاذه المير داماد، تعرض فيه للرد على عبد الله بن الحسين التستري في بعض الفروع الفقهية.[١٢]

ومن مؤلفاته المعروفة كتاب (مناهج الصواب) في شرح خلاصة الحساب لأستاذه الشيخ البهائي، أتمه سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٨م، وكتاب (مجمع الفوائد) في الكلام، وكتاب (مجمع الفرائد) في المعاني والبيان.

خ- الشيخ محمد بن علي الأشكوري اللاهيجي، المعروف بقطب الدين الأشكوري، صاحب كتاب (محبوب القلوب).

د- السيد محمد محسن بن علي أكبر الحسيني الرضوي، ورد ذكره في ترجمة السيد الداماد في موسوعة طبقات الفقهاء.

ذ- السيد الأحمد العاملي ، صهر السيد الداماد، وحصل منه على إجازة.

٣. مؤلفاته:

تصنف معظم مؤلفات السيد الداماد، في حقلي الفلسفة والكلام، وبعضها مطبوع ومنشور، وبعضها الآخر غير مطبوع.

ولم تذكر كتب السير والتراجم ترتيباً لهذه المؤلفات بحسب تواريخها، أو تصنيفاً لها حسب مجالاتها، وإنما اعتنت في الأساس بتذكرها والإحاطة بها، من دون الإشارة إلى بياناتها وتفاصيل هذه البيانات.

وهذه المؤلفات هي:

- الرواشح السماوية في شرح الأحاديث الإمامية: كتاب في شرح كتاب (الكافي) للشيخ محمد بن يعقوب الكليني، عدّه الدكتور ديناني من كتبه المهمة التي تكشف في نظره عن موقفه على صعيد الحكمة والحديث، وتناول فيه من القضايا الفلسفية المهمة التي قلّما يمكن العثور عليها في كتاب آخر.[١٣]
- القبسات: كتاب في الحكمة، حققه مهدي محقق، صدر في طهران، ويعد في نظر المستشرق الياباني توشيهيكو تحفة أدبية رائعة في الميتافيزيقا.[١٤]
- الجذوات: عده الدكتور ديناني أحد أهم مؤلفات السيد الداماد، كتبه للشاه عباس الصفوي، وبأمر منه.[١٥]
- الإيقاضات: رسالة مطبوعة، أشار إليها الشيخ مرتضى المطهري وقال عنها إن السيد الداماد بحث فيها القضاء والقدر، والجبر والاختيار، وأبدى فيها نظرات خاصة.[١٦]
- الإيماضات:
- نبراس الضياء في تحقيق معنى البداء.
- الأفق المبين: كتاب في الحكمة الإلهية.
- تقويم الإيمان: كتاب في علم الكلام.
- السبع الشداد: كتاب مطبوع يتحدث عن أصناف من العلوم.
- شارع النجاة: كتاب في الفقه.
- رسالة في اختلاف الزوجين قبل الدخول: ضوابط الرضاع.
- سدرة المنتهى: كتاب في تفسير القرآن الكريم.
- الصراط المستقيم: كتاب في الحكمة.
- الحبل المتين كتاب في الحكمة.
- حاشية على كتاب (مختلف الشيعة إلى أحكام الشريعة) للعلامة الحسن بن المطهر الحلي.
- شرح كتاب (الاستبصار) في الحديث، للشيخ محمد بن الحسن الطوسي.
- رسالة في المنطق.
- حاشية على رجال النجاشي: كتاب في الرجال، والنجاشي هو الشيخ أحمد بن علي بن العباس النجاشي، من علماء القرن الخامس الهجري.
- حاشية على رجال الطوسي: كتاب في الرجال. والطوسي هو الشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ).

رسالة في مذهب أرسطا طاليس؛ وقد أشار إليها الشيخ مرتضىٰ المطهري، وهي تبحث في الصنع والإبداع، ونظرية الحكماء في قدم المادة، وقدّم حلاً لما كان مورداً للاختلاف بين أفلاطون وأرسطو.[١٧]

- أجوبة المسائل.
- اللوامع الربانية في رد شبه النصرانية.
- رسالة في جيب الزاوية: كتاب في الرياضيات.
- عيون المسائل. وهذا الكتاب لم يكمله.

ثالثا: فلسفته ونظرياته

من النصوص المهمة والقيمة التي شرحت فلسفة السيد الداماد، النص الذي كتبه المستشرق الياباني المتخصص في الفلسفة الإسلامية، توشيهيكو إيزوتسو بعنوان (المدخل إلىٰ فلسفة المير داماد)، وهو النص الذي سوف يشعر بالحاجة إليه، كل من يريد الاقتراب أو التعرف علىٰ فلسفة السيد الداماد. فقد تمكن هذا النص -علىٰ إيجازه- من الإحاطة بفلسفة السيد الداماد، وتكوين المعرفة بها علىٰ نحو واضح ومركز، وبلغة حديثة، وتبسيط فلسفته التي عرفت بالتعقيد والإبهام. وهاتان الصفتان في نظر ديناني هي من خصوصيات السيد الداماد. وألحق هذا النص بكتاب (القبسات) للسيد الداماد في الطبعة التي حققها الدكتور مهدي محقق، وأعادت نشره مجلة (المحجة)، التي يصدرها من بيروت معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، في العدد الثالث عشر، سنة ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ.

وعرف عن السيد الداماد ثقته الكبيرة بذاته وأفكاره. والطريف في الأمر كما يقول ديناني، أنه كان يرىٰ نفسه في مستوىٰ ابن سينا والفارابي، ويقدمهما أحياناً علىٰ أنهما شريكان في صناعة التعليم، وأشار إلىٰ ذلك في كتابه (الجذوات)، فعن ابن سينا يقول: إنه "شريكنا السالف في رئاسة حكماء الإسلام"، وعن الفارابي يقول: إنه "شريكنا السابق في تعليم وتصحيح الفلسفة الإسلامية."[١٨]

وفي تعقيبه علىٰ هذا الموقف، يرىٰ ديناني أنه مهما قيل علىٰ هذا الصعيد، ومهما كان تفسيرنا لكلامه، إلا أننا لا نشك في أنه فيلسوف قدير، ومتكلم من الدرجة الأولىٰ، وأن صفة الثقة بالنفس تعبر عن نفسها في آثاره بوضوح، أكثر من أي مفكر آخر، وبخاصة في أسلوب كلامه، وإيقاع كلماته، وقلما نلاحظ في تصانيفه الترددات الفلسفية، فضلاً عن أن رنين عباراته فيها من القوة، بحيث لا نكاد نشم منها رائحة التواضع.[١٩]

وتعزيزاً لهذا الموقف، يرىٰ توشيهيكو أن اللقب الجدير بالاحترام الذي عرف به المير داماد هو المعلم الثالث، وهذا اللقب في نظره يشهد علىٰ الشهرة العظيمة والفردية التي تمتع بها في عالم الفلسفة عند شيعة إيران، ويظهر مدىٰ التقدير العالي الذي حظي به المير داماد كفيلسوف مسلم في حياته وبعد وفاته. وقد استمر إشعار تبصّره الفلسفي في تنوير آلاف العقول المفكرة في إيران حتىٰ يومنا هذا.[٢٠]

ولم يشرح توشيهيكو من أين وكيف جاء لقب المعلم الثالث للسيد الداماد، وما هي مناسبته، وقد أطلق عليه هذا اللقب لكنه لم يشتهر به كثيراً، كما اشتهر أرسطو بلقب المعلم الأول، والفارابي بلقب المعلم الثاني، ولم يشر الدكتور ديناني إلىٰ هذا اللقب في حديثه عن السيد الداماد في كتابه (حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي)، وهو المُلم والضليع بتاريخ الفلسفة والفكر الفلسفي في إيران. ويبدو أن هذا اللقب، له علاقة بما كان يراه السيد الداماد لنفسه، من أنه في منـزلة ابن سينا والفارابي، وبوصفهما شريكيه في رئاسة الفلسفة وتعليمها.

ومن حيث الانتماء الفلسفي، تنتمي فلسفة السيد الداماد وتصنف ضمن الفلسفة الإشراقية، وهذا ما يوحي به في نظر الشيخ عبد الله نعمة الأسماء الكثيرة من كتبه،[٢١] ولأن السيد الداماد كما يقول الدكتور ديناني يجد أنسه بفلسفة الإشراق السهروردية.[٢٢]

وتلتقي في فلسفة السيد الداماد، فلسفتا ابن سينا وشهاب الدين السهروردي، وهذا ما يكتشفه من يتعرف إلىٰ هذه الفلسفة، ويقترب منها. ويعد الدكتور ديناني هذا التلاقي سمة تميزت به بصورة عامة مدرسة أصفهان الفلسفية، التي شهدت نوعاً من الانسجام والتناسق بين ابن سينا والسهروردي.[٢٣]

وقد اعتنىٰ توشيهيكو بشرح هذا التلاقي في فلسفة السيد الداماد وتأكيده، لكونه من الملامح الأساسية في بنية

فلسفة الداماد. وفي شرحه يقول توشيهيكو، إن الفلسفة الأساسية لمير داماد تتضمن نوعاً من التركيب المتناسق بين التفكير العقلاني والتجربة الرؤيوية، أو التبادل الحميمي جداً بين التفكير العقلاني والحدس الصوفي... ونتيجة لذلك نرىٰ في شخص المير داماد اتحاداً فريداً بين الجانب المدرسي المحض لابن سينا، والإشراق الشهودي للسهروردي.[٢٤]

وهناك مسألتان عدّهما الباحثون من أهم وأبرز المسائل الفلسفية التي عالجها السيد الداماد، وبهما تميزت فلسفته، وهما:

١ • مسألة الحدوث الدهري:

وهذه المسألة في نظر الشيخ المطهري، هي أهم مسألة بحثها السيد الداماد،[٢٥] وكانت في نظر ديناني، من أكثر المسائل اشتهاراً عند السيد الداماد، واقترنت باسمه دائماً،[٢٦] وهي التي جعلت السيد الداماد في نظر توشيهيكو يحتل مكانة خاصة جداً في التاريخ العام للفلسفة الإسلامية، بسبب الأصالة التي عرف بها هذه المسألة.[٢٧]

وتتصل هذه المسألة بقضية حدوث العالم وقدمه، وهي القضية التي عرفت مبكراً في تاريخ الفلسفة الإسلامية، وأثارت جدلاً ونـزاعاً طويلاً وشديداً بين الفلاسفة والمتكلمين.

وفي رؤية السيد الداماد -كما يقول ديناني- بإمكان الفلاسفة والمتكلمين التفاهم في هذه القضية، وحلّ الاختلاف القائم بينهم حولها، ولتحقق التفاهم حول الكثير من القضايا الأخرىٰ، لهذا انبرىٰ السيد الداماد لتقديم تفسير لظهور العالم، ليس من نوع الحدوث الزماني الذي يقول به المتكلمون، ولا من نوع الحدوث الذاتي الذي يذهب إليه الفلاسفة، وإنما تقدم بفكرة جديدة عبر عنها بالحدوث الدهري.[٢٨]

وقد بذل الباحثون المعاصرون في حقل الفلسفة، جهداً تفصيلياً، لتوضيح هذه المسألة، ورفع ما يحيط بها من غموض وتعقيد، وحين توقف توشيهيكو أمام هذه المسألة أشار بقوله :"وهنا ينبغي علينا الاعتراف بأن فضاء كثيفاً من الغموض يغلّف هذا القسم من تفكيره، ومن الصعب جداً إدراكه".[٢٩] وما قدمه توشيهيكو من شرح وتوضيح، يمثل مادة مهمة في تكوين المعرفة بهذه المسألة.

وحسب توضيح ديناني لهذه المسألة، بعد ما أشار إلىٰ ثلاث مقدمات تمهيدية، اتضح عنده : أن السيد الداماد "يعتبر العالم حادثاً بالحدوث الدهري؛ يقصد أن هذا العالم مسبوق بوجود عالم الملكوت، ويقع عالم الملكوت في وعاء الدهر؛ أي إن الدهر بمثابة وعاء لعالم الملكوت. ومن هنا يعد سبق عالم الملكوت وتقدمه علىٰ هذا العالم؛ أي عالم الناسوت، من نوع السبق أو التقدم الدهري".[٣٠]

والخلاصة أن السيد الداماد، يعتقد أن وجود العالم مسبوق بعدم حقيقي دهري، لهذا فهو يعده حادثاً دهرياً.

٢ • مسألة أصالة الماهية:

وهذه هي المسألة الثانية التي حظيت باهتمام الباحثين والدارسين لفلسفة السيد الداماد، وقد تجلت هذه المسألة بوضوحٍ كبير في فلسفته، وفي آثاره الفلسفية، وعرف بها، وأكّدها في مناسبات متعددة. و لم يكن السيد الداماد ينفرد بهذه المسألة، ولا هو أول من قال بها، فقد سبقه من قبل وبقرون الشيخ شهاب الدين السهروردي فيلسوف الإشراق المعروف.

ويرىٰ توشيهيكو أن السيد الداماد كان تابعاً مخلصاً في هذه المسألة للسهروردي، وحسب قوله: "هذا الموقف تمت صياغته بعبارات واضحة للمرة الأولىٰ في تاريخ الفلسفة الإسلامية علىٰ يد السهروردي شيخ الإشراق، وفي هذه المسألة كان المير داماد تابعاً مخلصاً للسهروردي".[٣١]

وبخلاف المسألة السابقة، لم يجد الباحثون تعقيدات في تحليل هذه المسألة، وتكوين المعرفة بها، لهذا فإنهم لم يتوسعوا كثيراً في الحديث عنها شرحاً وتوضيحاً وتفسيراً. خصوصاً وأن هذه المسألة كانت معروفة من قبل، وتتجاذبها المواقف ووجهات النظر في اتجاهين متقابلين كانا معروفين دائماً؛ اتجاه يقول بأصالة الماهية واعتبارية الوجود، ومن ثم تقدم الماهية علىٰ الوجود، وهو رأي السهروردي والسيد الداماد، واتجاه يقول بأصالة الوجود واعتبارية الماهية، ومن ثم تقدم الوجود علىٰ الماهية، وهو رأي الملا صدرا وآخرين.

رابعاً: نموذج من تلاميذ الداماد

من الممكن القول إن أهم نقاش فكري وتاريخي

حول السيد الداماد، هو ذلك النقاش الذي يتصل من جهة علاقته بالملا صدرا، ولعل هذه مفارقة لكونها تتعلق بالعلاقة بين التلميذ والأستاذ.

ويتحدد هذا النقاش في اتجاهين؛ اتجاه له علاقة بالشهرة التي نالها السيد الداماد، واتجاه آخر له علاقة بفلسفة السيد الداماد ومصيرها. وهذان الاتجاهان هما:

الاتجاه الأول: بقدر ما تعاظمت شهرة السيد الداماد من جهة علاقته الأستاذية بالملا صدرا. تناقصت وتراجعت هذه الشهرة من جهة هذه العلاقة كذلك.

وتفسير هذه المفارقة، أن شهرة الملا صدرا تعاظمت على نحو غطت فيه على شهرة السيد الداماد وقلصت من هذه الشهرة، وزحزحت مكانته الفكرية والفلسفية، فقد ظلت شهرة الملا صدرا تتصاعد بصورة متعاقبة بحيث لم يعد هناك مجال للمقارنة بينهما. وما زال الملا صدرا يتربع اليوم محافظاً على شهرته الفائقة التي لا يكاد ينازعه فيها أحد داخل الفلسفة الإيرانية، والمعاصرة منها أيضاً. ولهذا يمكن القول إن الملا صدرا أنهى عهد السيد الداماد وختم عليه، مسجلاً عهداً جديداً ما زال حاضراً ومؤثراً إلى هذا اليوم.

الاتجاه الثاني: إن أكثر ما توقف عنده الباحثون، ولفت نظرهم بشدة في فلسفة السيد الداماد، هو موقف الملا صدرا، وتحديداً موقفه من مسألتي الحدوث الدهري وأصالة الماهية، فقد تراوح موقفه بين الإهمال والصمت تجاه مسألة الحدوث الدهري، وموقف القبول ثم الرفض تجاه مسألة أصالة الماهية.

وبشأن هاتين المسألتين يمكن توضيح الموقف على النحو التالي:

المسألة الأولى: لقد اندهش الباحثون واستغربوا موقف الملا صدرا تجاه نظرية السيد الداماد في الحدوث الدهري، وأشار إلى هذا الموقف الدكتور ديناني بقوله: "ورغم أن الملا صدرا من تلامذة السيد الداماد الأوفياء، إلا أنه أبدى تجاهله لنظرية أستاذه في الحدوث الدهري، ومر عليها بصمت بارد ممزوج بالإنكار، ولا يمكن أن ينسجم الحماس الذي أبداه السيد الداماد في استعراض الحدوث الدهري مع صمت ملا صدرا وعدم اهتمامه".[٣٢]

ولعل أقرب تفسير لهذا الموقف، هو ما أشار إليه الشيخ مرتضى المطهري الذي بدا له أن الملا صدرا لم يقبل هذه النظرية و لم يبحثها إطلاقاً، لأنه لم يرغب في أن يهاجم ما ذهب إليه أستاذه المير داماد، لا سيما أنه يذكره بإجلال في المجلد الثاني من الأسفار، في بحث الجواهر والأعراض.[٣٣] وكان من السهولة التنبه لمثل هذا الموقف الذي أشار إليه الشيخ المطهري، وترجيحه، لأنه من أكثر المواقف احتمالاً.

المسألة الثانية: لقد أعطى توشيهيكو أهمية خاصة لهذه المسألة نتيجة موقف الملا صدرا المغاير لموقف أستاذه المير داماد، ورأى توشيهيكو أن من المثير أن نلاحظ الملا صدراً تلميذاً بارزاً عند المير داماد، تابع أستاذه بدقة في تأييده لمقولة أصالة الماهية في شبابه، ثم أصبح لاحقاً مؤيداً متحمساً للأطروحة المعاكسة، وكان هذا نوعاً من الهداية الفلسفية والروحية كما يصف ذلك بما معناه: "في أيام شبابي اعتدت أن أكون مدافعاً متحمساً عن الأطروحة القائلة بأن الماهيات لها وجود حقيقي خارج العقل، وأن الوجود ليس سوى بناء عقلي، حتى هداني الله وجعلني أرى برهانه على ذلك، وعلى نحو مفاجئ وبأعظم قدر من الوضوح، رأيت ببصيرتي أن الحقيقة على العكس تماماً مما اعتقده الفلاسفة عموماً، فسبحان الله الذي أخرجني بنور البصيرة من ظلمات الأفكار التي لا أساس لها وثبتني بشكل راسخ على الرأي الذي لن يتغير أبداً".[٣٤]

ومن بعد هذا التحول عند الملا صدرا، باتت مسألة أصالة الوجود تعد من أهم المسائل التي ترتكز عليها فلسفة الملا صدرا، وتشكل الأساس الذي تتفرع عليه كما يقول الشيخ المطهري، وتنشأ عنه المسائل الأخرى.[٣٥]

وهذا الموقف من الملا صدرا، هو الذي غيّر وجهة الفلسفة وحركتها في إيران، وما زالت إلى اليوم وهي على هذه الوجهة، وبذلك يكون الملا صدرا قد ختم عصر السيد الداماد وفلسفته.

الخاتمة

لقد ترك الداماد من المصنفات في الفلسفة الإسلامية وغيرها الكثير مما كان له أكبر الأثر في مسيرة الفلسفة الإسلامية في إيران، ذلك أن كتابات الداماد كانت في عهد الدولة الصفوية وكانت بمتابعة من ملوكها، فقد عمد إلى تصنيف كثير من مصنفاته بطلب من بعض ملوكها.

ويظل الداماد حلقة الوصل المهمة بين عدة أجيال من علماء الفلسفة الإسلامية، ورجل البارز في تعداد الفلسفة الإشراقية التي بلورها الفيلسوف شهاب الدين السهروردي. والمحطة المتميزة في مسألة الحدوث الدهرية، وأصالة الماهية، وقد حاز لقب المعلم الثالث، بعد أرسطو وابن سينا، وهذا فيه إشارة جلية إلى الدور الكبير الذي قام به الداماد ومصنفاته في إكمال دورة الفلسفة الإسلامية إلى أن وصلت إلى أيدي تلاميذه من مثل الملا صدرا الذي استكمل مسيرة معلمه الداماد.

المراجع

(١) السبحاني، جعفر. موسوعة طبقات الفقهاء، بيروت: دار الأضواء، ٢٠٠١م، ج١١، ص٣١٥.

(٢) ديناني، غلام حسين. حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، تعريب: عبد الرحمن العلوي، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١م، ج٢، ص١٠٦. نقلاً عن: البهبهاني، علي الموسوي. مير داماد حكيم أستراباد، طهران: إصدارات كيهان، ص٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٧-١١١.

(٤) إيزوتسو، توشيهيكو. «مدخل إلى فلسفة المير داماد»، ترجمة: محمد ثائر القدسي، مجلة المحجة، بيروت، يصدرها معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينية والفلسفية، عدد١٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٩٤.

(٥) نعمة، عبد الله. فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٨٧م، ص٤٤٢.

(٦) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٨.

(٧) المرجع السابق. ج٢، ص١٠٨.

(٨) المرجع السابق. ج٢، ص١٠٧.

(٩) السبحاني، موسوعة طبقات الفقهاء، مرجع سابق، ج١١، ص٨٥.

(١٠) إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص١٩٤.

(١١) السبحاني، موسوعة طبقات الفقهاء، مرجع سابق، ج١١، ص١٠٢.

(١٢) المرجع السابق، ج١١، ص٣٢٠.

(١٣) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٨.

(١٤) إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص١٩٥.

(١٥) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ج٢، ص١٠٨.

(١٦) المطهري، مرتضى. محاضرات في الفلسفة الإسلامية، ترجمة: عبد الجبار الرفاعي، قم: دار الكتاب الإسلامي، د.ت، ص٨٨.

(١٧) المرجع السابق، ص٨٨.

(١٨) الداماد، محمد باقر. الجذوات، طهران: إصدارات بهنام، طهران،١٩٤٦ ص٤٩.

(١٩) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١٠٧-١٢٠.

(٢٠) إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص١٩٤.

(٢١) نعمة، فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم، مرجع سابق، ص٤٤٣.

(٢٢) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١٠٩.

(٢٣) المرجع السابق، ص١١٠.

(٢٤) إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص١٩٥.

(٢٥) المطهري، محاضرات في الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص٨١.

(٢٦) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١١١.

(٢٧) ا إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص١٩٦.

(٢٨) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١١٣.

(٢٩) إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص١٩٦.

(٣٠) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١١٥.

(٣١) إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص٢٠٣.

(٣٢) ديناني، حركة الفكر الفلسفي في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص١١٦.

(٣٣) المطهري، محاضرات في الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص٨١.

(٣٤) إيزوتسو، مدخل إلى فلسفة المير داماد، مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٣٥) المطهري، محاضرات في الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص١٢٩.